المبحث الرابـع

شعره فـي زمن الثورة

obeikandl.com

obeikandl.com

يتجلى شعر أحمد سحنون في هذه المرحلة من خلال مضامين متنوعة ، شملتها محنته المؤيدة بمحنة الشعب الجزائري وبطولاته الخالدة ، ففي شعره نجد الثورة والتحدي ، وفيه نقرأ لعوالم مرعبة مفزعة أساسها سجون فرنسا ومعتقلاتها ومحتشداتها (*) التي تحول الوطن في ظلها إلى ساحة للعذاب ، وإذا كان الدكتور «صالح خرفي» قد لاحظ سكوت أحمد سحنون عن قرض الشعر في بداية الثورة التحريرية قائلاً :«وسكت أحمد سحنون الذي كان في الأربعينيات يلتمس وهج الثورة بأطراف أصابعه ، ويشرف على الجماهير إشراف القائد على الكتائب الزاحفة ، ويستنفر الشعب بشعر يكاد يصّعد في السماء» [1] فإننا نقرأ لأحمد سحنون بعد ذلك قصائد لا حصر لها ، وستكون القراءة وفق العوالم الآتية :

(*) للسجون الفرنسية في الجزائر مصطلحات متعددة منها : السجن والحبس والمعتقل والمحتشد .

ـ أما الحبس فهو المصطلح المرادف لكلمة سجن، وقد دأب الشعب على استعماله أيام الثورة .

ـ والمعتقل يعني : تجمع عدد من المجاهدين في مكان محروس غير السجن المعهود، ويشمل أيضا أولئك الذين لم تقض المحكمة الفرنسية في شأنهم بحكم، فتركوا بين القضبان بمصير مجهول .

ـ والمحتشد : يطلق على المخيمات التي تقيمها فرنسا في كامل أنحاء الوطن لتحشر فيها الشعب وتعزله عن الثوار .

ـ انظر : «المعجم الموموعي لمصطلحات الثورة التحريرية» ، د . عبد المالك مرتاض ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ الجزائر ـ ١٩٨٣ : ص٥٣،١٠٦،١١٣ .

(١) «الشعر الجزائري الحديث»، د . صالح خرفي : ص٢٢٤ .

أ ـ عالم السجن

يتميز أحمد سحنون عن غيره من الشعراء الجزائريين المسجونين ، فنسبة النماذج التي عبر فيها عن عالم السجن وما صاحبه من غربة وحزن وحنين تفوق نسبة الآخرين(*) ، ومن هنا جاءت تسميته لهذه القصائد (حصائد السجن) وهو حصاد مر علقم ، فقد تحول موضوع السجن عنده إلى صراع بين الماضي الإسلامي العزيز الزاخر المليء بأسباب الحياة ، وحاضر مؤلم يصارع فيه السقوط ، ويعاني الويل والأسى ففي قصيدته «أين ياصداح» صورة لهذه التجربة حين تبدو المفارقة المؤلمة ، بين الماضي الذي رفع الشاعر وأعزه ، فوهب له الرخاء والهناء ، والحاضر الذي اعتدى عليه فأذله ، وقد أسماها «أنشودة» ، «والإنشاد عنصر من عناصر الجمال في الشعر ، لا يقل أهمية عن ألفاظه ومعانية» (١) والإنشاد في عالم السجن والغربة ، لا يأتي إلاَّ حزيناً باكياً يقول(٢) :

أين يا صداح ما كان لنا ... من رخاء وصفاء وهنا؟
أين ولى ذلك العهد الذي ... قد جمعنا فيه أشتات المنى؟
أين ما كان لنا من سؤدد ... عز فيه كل مظلوم بنا؟
أين ذاك العهد أيان اختفى ... أين غابت كلها تلك الدنا؟

وتكرار الشاعر لأداة الإستفهام يعني شيئاً مهماً في إيقاع القصيدة التي أبدعها صاحبها من أجل الإنشاد ، فضلاً عن أن تردد «أين» يعني ارتباط الإستفهام بالحالة الحزينة للشاعر ، وقد حتمت النظرة التقليدية للشاعر مثل هذا الشرح والتوضيح

(*) التفوق هنا لا يعني إلاَّ الكم، أما الفن فإن الشاعر نفسه يعترف بضعفه، حين ذكر في مقدمة ديوانه بأنه زاهد في تقديمه للنشر، وأنه غير راض عنه . والسبب في ذلك كما يقول : «لأنني لا أراه معبرا عما أشعر به من صور وأخيلة» انظر : «ديوان أحمد سحنون» : ص٦٠ .

(١) «موسيقى الشعر» : د .إبراهيم أنيس، ط٥ ـ مكتبة الأنجلو مصرية ـ ١٩٨١ :ص٦٤ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٥٨ .

الذي يأتي في البيت الثاني وما بعده مفصلاً وموضحاً ؛ لما كان فيه الشاعر وقومه من عزة ورفعة .

ويلتفت أحمد سحنون بعد هذ الأسئلة الحائرة إلى واقعه الذي يجرب فيه الغربة المؤيدة بالوثاق وقسوة الجلاد(١) :

يا لها غربة عن الأوطان ... نبهت ما غفا من الأشجان
غربة ضوعفت بنفي وسجن ... وتناهت بقسوة السجان
شل فيها فكري وأجدب إلها ... مي وأودت بحكمتي وبياني
وقريضي قد عقني وتلاشى ... بين جدرانها صدى ألحاني

والأبيات تسقط في النثرية ، والتعابير الجاهزة التي يؤكدها العقل الواعي ، لكنها تحمل صدقاً ذاتياً ، وإحساساً عميقاً بالمحنة ؛ فالشاعر لم يرتد إلى المخزون الثقافي كما في فعل معاصريه ، ولم يغال في قوته ، ولكنه قد حاول التعامل مع واقعه بلغة ، قد لاتكون شعرية ؛ لكنها لغته وتعابيره التي لجأ إليها صادقاً كاشفاً عن همومه وأحزانه ، بعيداً عن كل ادعاء أو زيف ، وليس عيباً أن يفعل ذلك «فلم يكتم الرجال الأشداء الذين عرفوا بسمو المطلب والمنزلة وبمعاناة الأخطر ، لم يكتموا ـ عندما هالهم ظلام الحبس ـ الوهن الذي تملك نفوسهم في عزلتها بين الذل والخوف» (٢) .

وتعد قصيدة «أيها المبعد» إحدى موشحاته التي تلتقط حركة النفس ، وهي تتصارع مع عالم السجن المفجع ، ففيها يتحول السجن إلى قبر موحش ، يلفه ظلام دامس ، يحيط بالشاعر الذي طال بعده عن الصبية والوطن ، ويمكن القول : إن أحمد سحنون قد عاش تجربة النهاية في هذه القصيدة ، لكنها تجربة قاصرة عن أن تبلغ ما بلغته تجارب الشعراء العرب الأوائل المسجونين ، حين سجلوا خواطرهم ومشاعرهم ، وهم يتأهبون لأن يفارقوا الدنيا ، والقاسم المشترك بينه وبينهم أن

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٠٥ .

(٢) «الأسر والسجن في شعر العرب»، د .أحمد مختار البزرة، مؤسسة علوم القرآن، ط١ . دمشق ـ بيروت ١٩٨٥ : ص٤٧٣ .

السجن هو طريق النهاية أو هو القبر : (١)

أيها المبعد ما أعظم صبرك
أنت قبل الموت قد أودعت قبرك
أنت لا تشكو لغير الله أمرك
أيها المبعد قد طال بعادك
فلقد أوشك أن يطوى كتابك

والذي يؤلم الشاعر في سجنه تلك الحياة الجامدة التي يحياها بين جدران السجن ، فسحنون القائد والمعلم الواعظ يأتيه يوم لا يرى فيه إلاَّ ذلاً وهواناً وجموداً ، وبئست الحياة على هذه الشاكلة(٢) :

أيها المبعد في أقصى الحدود
أفما تسأم من هذا الجمود؟
أفترضى العيش في هذي اللحود؟
أفما ثرت على دنيا القيود؟

وفي سجنه الذي هو سجن كل الجزائريين الذين أجبرهم الاستعمار على أن يكونوا كذلك في وطنهم ، يستغل الشاعر كل مناسبة تحل به ليسأل علّه يجد جواباً لقضيته ، وكذلك فعل في قصيدته «عام جديد» ، يقول (٣) :

عام جديد يقبل ... هل فيه خير يؤمل؟
هل فيه من فرح يتا ... ح ومن هناء يشمل؟
شعب الجزائر فى السجو ... ن وفي الحديد مكبل
شعب الجزائر كالقطيـ ... ـع مشرد ومقتل
شعب صباياه بنير ... ان الرصاص تجندل
فعلت به الأزمات والـ ... أحداث مالا يفعل

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٥٤ .
(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص١٥٥ .
(٣) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٢٢ .

وعالم السؤال عنده مقرون بالواقع السياسي والاجتماعي الخطير فالمحتشدات والسجون والقتال الدائر في الجبال والموت والإعدام ؛ كل ذلك باعث لزعزعة النفس ، وثورة الروح . وتعتبر قصيدة (الطود) التي ناجى فيها (جبل الضاية) من وراء القضبان أبلغ تعبير عن لحظات النفس المجاهدة التي تفارق السجن ، وتتخطى حواجز الأسوار ، لتسمو إلى عالم الروح ، فقد كان للشاعر مع الطود ما كان مع (ابن خفاجة) و(مجنون بني عامر) في مناجاتهما(*) إن (جبل الضاية) عنده قوي شامخ ذو جلال وكبرياء أمام نفسه الضعيفة المحبوسة بين جدران ضيقة(١) :

أيها الواقف المطل على الدنـ ـيا برأس متوج بالإباء
يتحدى الردى ويهزأ بالإعـ ـصار والعاصفات والأنواء
لا يبالي صروف الليالي ولا يحـ ـفل بالحادثات والأرزاء
أيها الطود ليت لي منك ما أو تيته من مناعة واعتلاء
ليتني كنت أيها الطود حراً من قيود قد حطمت كبريائي

وتعد هذه الأماني المكررة محاولة اجتيازية يفرضها واقع السجن على النفس ، فالطود في بداية القصيدة قوي حصين يتحدى بشموخه وعظمته ، لكن الشاعر يرتقي بعد ذلك إلى تيقظ روحي يتحد فيه (الجبل) كعنصر من عناصر الطبيعة الواعية المسعدة بذات الشاعر ، فيهامسه في مناجاة وجدانية تشف عن حزن مستتر ، وعن غربة روحية ممدودة . ويستمر تصاعد الخط النفسي والروحي من خلال الخطاب الموجه إلى الجبل ، وإذا بهذا الطود تتكرر صورته ، ويجيء تشخيصه لرمز متغير يقصد إليه الشاعر قصداً ، فهو في القسم الأول عنيد جبار ، لا يأبه بما حوله ، ويكون هنا رمزاً لدلالة عظيمة تمور بها النفس ، أهمها محاولة الانطلاق من عالم الغربة والوثاق ، ولن يكون

(*) ينظر : «ديوان ابن خفاجة»، دار صادر، بيروت ١٩٦١ : ص ٤٣ .
وأيضاً : «ديوان مجنون ليلى»، شرح عبد المتعال الصعيدي ـ مكتبة ا لقاهرة ـ : ص٤٩، د .ت .
(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص٥٩ .

ذلك جسماً فلا أقل من أن يكون روحاً ، ويتبدل الرمز بل يتسع ليشمل معاني أوسع مما يعنيه ، فإذا الطود (مكان الوحي) للشاعر يمنح القصيد والخلاص (١) :

أيها الطود أيها الجبل المو ... حي جلال الخلود للشعراء
أيها القوة الكبيرة يا نبـ ... ـع قصيدي ويا معين غنائي
أنا في هذه الحياة شقي ... ضاق ذرعا بما بها من شقاء

وتمضي القصيدة في تصاعد مثير ، حيث تغادر روح الشاعر سجانها ، وتلتحم بالطود (رمز القوة الإسلامية) فينتفي المكان والزمان حوله ، ويتوالى عالم الرموز فيعيشه الشاعر متحداً متصوفاً خاشعاً ، فلا السجن ولا جبل الضاية بقريبين منه لكنه المكان الروحي الذي انطلقت منه الرسالة الخالدة (الإسلام) :

من ذراك المنيعة انبثق النو ... ر على التائهين في الظلماء
وتوالى الهتاف بالخطة المثـ ... ـلى من الثائرين والأنبياء
لم تزل مبعث الرسالات والثو ... رات مثوى الأبطال والزعماء

وتنتهي القصيدة بعد أن تكشف عن ظمإ الشاعر إلى الحرية ، وحنينه إلى الانعتاق :

أيها الطود قد بثثتك آلا ... مي فهل أنت سامع لندائي

ومن البين أن هذه القصيدة وما أشبهها ترسم اتجاهاً نحو العالم الروحي الزاخر بالذكريات ، العالم الذي يريده الشاعر ويعرفه ويحب أن يعرف فيه ويذكر ، وقد ولدها حرمان حارق ، وظمأ لاهب إلى الحرية ، التي لا يتحقق له السمو الروحي إلاَّ في ظلها ، والقصيدة تجعلنا نشعر ببعض الاطمئنان إلى أن الشاعر لم يعتمد كثيراً على الموروث بقدر ما اعتمد على تجربة خاصة ، نراها مناسبة لسنه وسجنه فضلاً عن معاناته الروحية ، التي لا ينسى أن يذكرنا بها كلما جاد ببيت من الشعر في سجنه .

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص٦٠ .

ب ـ اللجوء إلى الله

ويتسلح أحمد سحنون بجانب هام يقيه هم الغربة ، ووحشة السجن وقسوة الجلاد ذلك هو اللجوء إلى الله ، والرجاء فيه . إنه العنصر الوحيد الذي يتحلى به الإنسان المؤمن في لحظات كهذه «والرجاء : حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب ـ وهو الله ـ وقيل : هو الثقة بجود الرب تعالى . . . »(١) ومن المعروف أن الرجاء صنو الصبر : «قوة نفسية تردفها القيم الدينية والإنسانية ، وتصل قلب الشاعر بقوة الغيب التي هي فوق القوى جميعاً ، فيستمد منها ثباتاً مكيناً ، وقوام الرجاء : الإيمان بتغيير مجمل الأحداث المتوقعة تغييراً فجائياً ، وهو منطق تقره طبيعة الأحداث نفسها ، التي تبدو للشاعر خارجة عن إرادة البشر»(٢) .

لقد عرف أحمد سحنون هذا الطريق ، فسلكه لاجئا إلى الله الذي لا يقدر عليه أرباب السجن ، فهو الذي يبطش بالفراعنة المتجبرين ، وإليه المرجع حين تسودّ الأيام ، وتغلق الأبواب .

واللجوء إلى الله سمة الشاعر أحمد سحنون ، إذ لا يفارقه في جميع مراحل حياته الشعرية ؛ ذلك لأنه الأساس في حياته ، التي تتشكل في ظل رحلة روحية ممتدة ، لا يفارق فيها مولاه ، ولا عجب في ذلك فهو الداعية والمصلح والإمام .

ونحن إذ نقرن الدعاء بشعر الثورة المؤيد بالسجون والمعتقلات ، فإنما نفعل ذلك لاعتبار أساسي ، فرضه الكم الشعري الذي قد يعود إلى حجم المعاناة التي يجربها الشعب تحت وطأة الإستعمار الفرنسي ، وهي المعاناة التي لا يرفعها عنه إلاَّ الله ، فهو ناصر المظلومين .

والمؤكد أننا في هذه العجالة ، لا نروم الحديث عن كل أدعيته ؛ لكننا نريد أن نؤكد بعض سماتها ، ومنها اقترافها بضمير الجمع ، ذلك لأن الدعاء أساسه محنة

---

(١) «مدارج السالكين» ، ابن قيم الجوزية ـ تحقيق محمد حامد الفقي . ط٣ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٧٣ : ص٣٥ .

(٢) «الأسر والسجن في شعر العرب» : ص٤٨٥ .

الشعب الجزائري بأكمله ، والشاعر ملزم بمنطق المسؤولية ـالوطنية والإسلاميةـ على الحديث بهذا المفهوم يقول(١) :

ربـــاه طـــال بلاؤنـــا ... فـــإلى متـــى نتحمـــل
ربـــاه مـــا لكروبنـــا ... إلاَّ عليـــك معـــوّل
اجعـــل العـــام الجديـــد ... بكـــل خـــير يقبـــل

ويتحول الدعاء عنده إلى صيحات روحية يرسلها ؛ ليتخطى بها حواجز الأسوار ، ويعانق بها عالم الروح في لحظات المجاهدة ، يقول في قصيدة «صلة الشاعر بربه»(٢) :

رباه لم تبق لنا حيلة ... وما لنا حول ولا قوة
وما لنا غيرك من عاصم ... يعصمنا من هذه الهوة
أوطاننا الجنات لكننا ... نأوي لسجن لم نطق جوه
أيامنا الغر استحالت إلى ... صحائف للحزن متلوة
عجل لنا بالأمل المرتجى ... وافتح لنا من فرج كوة

وتكثيف الشاعر للدعاء بالنصر دليل إيمان صادق ، وإحساس عميق بالجرح الذي حل بالإنسان الجزائري ، والذي لم يكن قائده أبناء فرنسا فحسب ، بل الحلف الأطلسي ، ومن لف حوله من الدول الظالمة المستبدة ، ولذلك نجد الشاعر وهو يتجاوز ـ في حديثه عن الظلم ـ الجندي الفرنسي ليصعد به إلى الإنسان الذي فقد صوابه حين تاه عن رسالته الحقيقية(٣) :

فتدارك بني الجزائر ربـ ... ـاه بلطف واشملهم بأمان
وانف عنهم ما في العبودية الحمـ ... ـقاء من ذلة وعيش هوان
رب هبنا نصراً فإنا طلبنا ... ثمن النصر بالنجيع القاني
رب لم يبق مسترقاً سوانا ... فهب العتق للأسير العاني
فاعتباد الإنسان يا رب لا تقـ ... ـوى عليه طبيعة الإنسان

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٢٢ .
(٢) «ديوان أحمد سحنون» :ص ١٤٩ .
(٣) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٠٦ .

ج ـ عالم الأبنـاء

يُعَدُّ الحنين إلى الأبناء إحدى الإنجازات المهمة في سجنيات أحمد سحنون ، ففي ديوانه قصائد عديدة تكنز في طياتها حنينه الطاغي إلى أبنائه ، والحنين نعمة أزلية أودعها الله في الإنسان ، فلولاها ما تذكرنا وما عشنا ، وما كانت الغربة وكان الصبر والرجاء .

وبين جدران السجن تتحرك عاطفة الشاعر ، ويستبد به الشوق إلى وطنه الأكبر حيث معاناة الشعب ، وإلى وطنه الأصغر حيث الصبية يعانون الجوع والعري والموت بين مخالب الذئاب ، وتلك هي شيمة الشاعر العربي في كل زمان «فهو كثير الإشفاق على ولده ، كثير السهر على حمايته ، شديد الالتصاق بالأرض التي فيها أبناؤه مخافة أن تنقطع عنهم رعايته ، بل كره بعضهم الموت وتمنى الحياة شفقة على أولاده ، حتى لا يقعوا فريسة لليتم وما فيه بلاء وذل»[1] . وتزداد الشفقة والحنين حدة إذا كان هؤلاء بناتاً وعن ذلك قال أحدهم[2] :

لقد زاد الحياة إليَّ حباً ... بناتي إنهنَّ من الضعاف
مخافة أن يذقن الفقر بعدي ... وأن يشربن رنقاً بعد صافي

ولعل هذا ما وقع للشاعر أحمد سحنون حين خفق قلبه بالعديد من القصائد في وحشة لياليه ، وقسوة أيامه ، وأغلبها قصائد تتوثب بعاطفة الأبوة ، حيث يثور الحنين إلى فلذات الأكباد ، فلا حياة له بدونهم[3] :

ما بين أولادي يقيم فؤادي ... لا خير في عيش بلا أولاد
فارقتكم فإذا الحياة جميعها ... في ناظري قد جللت بسواد

---

(١) «جوانب مضيئة من الشعر العربي»، محمد عبد الغني حسن . مكتبة الأنجلو مصرية ـ د .ت : ص٦ .

(٢) «العزلة» ، الخطابي السبتي ــ تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري . دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٩٨٥ : ص٤٥ .

(٣) «ديوان أحمد سحنون» : ص ٧٥ .

لكـن فرقتكـم يهـون وقعهـا ... أنـي أفـارقكم لأجـل بـلادي
الله يرعـاكم إلـى أن نلتقـي ... وننـال بـالتحرير كـل مـراد

ولعل أحداً من أبنائه لم ينل حظاً من هذا الحنين مثلما نالته ابنته الصغيرة (فوزية) حين ظل كل شيء يذكره بها في سجنه ، سيما إذا كان قريب الشبه بهذه الصغيرة المدلَّلة كتلك العصفورة التي وقفت على نافذته ، فأثارت في نفسه من الهواجس ما أثارت الحمامة في نفس أبي فراس الحمداني فيقول[1] :

عصفـورة مـرت علـى غرفتـي ... تشـدو بلحـن سـاحر النـبرة
مـرّت تغنـي فاسـتثارت جـوى ... قلبـي وأشـواقي لعصفورتـي
عصفـورة تشـبهها روعـة ... فـي الوثـب والتغريـد والصـورة
عصفورتي إن جئت أرض الحمى ... وسمت (هكذا) بيتاً قد حوى صبيتي
كونـي رسـولاً صادقـاً للتـي ... منهـم تدعـى بفوزيـة
وبلغيهـا مـن أب والـه ... تحيـة الطـل إلـى الزهـرة
قولـي لهـا لا تهلكـي بالأسـى ... ولا يـذب قلبـك بالحسـرة
وسـوف تـأتي سـاعة الملتقـى ... لا بـد للغـائب مـن أوبـة

والقصيدة رغم ما تحمله من عواطف نبيلة إلاَّ أنها تُخفق فنياً ، فلا تعدو أن تكون مجرد رسالة عادية من أب غريب عن ابنته ، فالتقرير والمباشرة قد أفسدا التجربة فبدت سطحية هزيلة ، ولعل هذه سمة شعر المسجونين والغرباء منذ القديم «فحنينهم يأتي في أغلب الأوقات بوحاً ساذجاً ، ولكنه متدفق من الأعماق ، ويغلب على النفس في جيشانها العاطفي سذاجتها وعفويتها فلا يتاح لها تعميق الأفكار أو الغوص وراء تأمل بعيد»[2] .

ونفس الحب والحنان يكنه الشاعر إلى ولده (رجاء) لكنه حب يأخذ وجه الثقة

---

(١) «الأسر والسجن في شعر العرب» : ص ٤٩٠ .
(٢) «الأسر والسجن في شعر العرب» : ص ٤٩٠ .

والاطمئنان والإعجاب والتشجيع[1] :

(يارجاء) النفس يا أقصى مناها ... يـاحبيب الـروح يـا كـل هواهـا
يـاعزائي فـي شـقائي يـاهدى ... مهجتي إن أظلم الخطـب دجاهـا
لا تـدع حزنـك يرديـك فكـم ... قـرب الحـزن نفوساً مـن رداهـا
وتجلـد فأمانينـا علـى وشـ ... ـك أن يسـطع فـي الأفـق سـناها

لقد عاش أحمد سحنون مواقف كثيرة ، وحالات عديدة في سجنه ، وفي بعض هذه الحالات حاول أن يقترب من عطاء أسلافه ، ويمكننا أن نقرأ ذلك في قصيدة (ربّاه) التي زاوج فيها بين عاطفة الأب والأبناء حين فعلت فيه الوحشة والغربة مع أبنائه ما فعلته بأبي فراس الحمداني وأمه ، يقول أبو فراس[2] :

تسـأل عنـا الركبـان جـاهدة ... بـأدمع مـا تكـاد تمهلهـا

ويرصد أحمد سحنون حركة صغيره ، وهو ينتظر بلهفة وشوق أباه[3] :

ويظـل يرنـو للطريـق فـلا يـرى ... فـي العـائدين مـع المسـاء أبـاه

والشاعر أحمد سحنون ، لا يكتفي في هذه القصيدة بذكر صغيره المشوق ، بل يلجأ إلى كل أبنائه ليستعرضهم على مرآة قلبه ، وصفحة وجدانه واحداً واحداً[4] :

ومتى تعود سعادتي بسعيدتي ... فلهـا فـؤاد يكتـوي بجـواه؟
ومتى أعـود إلـى رجـاء منيتـي ... فـأرى محيـاه وألثـم فـاه
ومتى أرى فوزيـة فرؤيـة وجههـا ... تشـفي فـؤادي أو تبـل صـداه
ومتى تـرى عيناي عيني زينـب ... فـالظبي زينـب أولهـا عينـاه

إن هذا الاستعراض الطويل للأبناء ، إنَّما يدل على حركة النفس المضطربة ، وهي تصارع آلام الغربة وعذاب السجان ، والشاعر لا يكتفي في تأثره بالنموذج القديم

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ٧٣ .
(٢) «ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه» ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٧٩ : ص ٢٤١ .
(٣) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٥٩ .
(٤) المرجع نفسه : ص ١٥٩ .

فحسب ، إذا ما تعلق الأمر بعالم الأطفال ، بل يلجأ إلى الشعر العربي الحديث ، فيأخذ منه هذه التجربة الصافية ، كما فعل مع محمود غنيم حينما اتكأ على قصيدته (أنا وابناي) فنظم على منوالها قصيدته (ابنتاي) قائلاً[1] :

تبوأتما مهجتي يا ابنتيا ولازم طيفاكما مقلتيا
أرى البيت روضا بشخصيكما وإن غبتما كان سجناً عليا

والشاعر - بحكم إيمانه بالله - لم يترك نفسه تتعرض للسقوط أو الانهيار وسط مجاهيل السجن ، فراح يزودها بمدد إيماني جعله يتوجه إلى خالقه ، يدعوه كي يفك أسره ، ويعود إلى صغاره الذين تركوا بلا عاطفة تأويهم[2] :

رباه رحماك لي قلب ولي كبد وأفرخ بعدهم عني يؤرقني
رباه رحماك بالقلب الذي به الرزايا وأذوته يد المحن

هذه صورة مجملة لما كتبه أحمد سحنون في عالم الأبناء الذي يبدو زاخراً مليئاً بأسباب الحب والوفاء ممزوجاً بالمعاناة والألم ، ولعل هذه العواطف الصادقة هي التي تشفع للشاعر في مثل هذه القصائد التي يمكننا أن نقول عنها : إنها ضعيفة فنياً فالتقرير والمباشرة هما عمادها ، وهما سمتها التي لم تفارقها .

---

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ٦٦ .

(٢) «ديوان أحمد سحنون» : ص ١٦٨ .

د ـ عالم البطولة

في الحديث عن البطولة في شعر الثورة التحريرية نجد أنفسنا أمام نوعين من الصور البطولية ؛ أما النوع الأول : فيعتمد فيه الشعراء على الانفعال الثائر المؤيد باللحظة الآنية ، التي تفرض عليهم نوعاً من المشاهدات العينية ، التي ترى البطولة إقداماً وقتالاً في أعالي الجبال .

ويتعلق النوع الثاني بصور بطولية ذات أبعاد عميقة ، إذ يحاول الشاعر من خلالها أن يصور لنا إنساناً جزائرياً ، تتكامل فيه المدركات الجهادية ، كما تتوفر فيه المكونات المستقبلية التي تجعله يتشكل في إطار الهدف الأسمى ، الذي هو بناء الدولة الجزائرية العربية المسلمة بعد الاستقلال .

ويمكننا أن نجد هذا النوع الثاني من الصور البطولية في شعر أحمد سحنون ، الذي يحلم ببطل يعبر به مرحلة الجهاد الضاري إلى زمن الاستقلال المشرق ، فحديثه عن البطولة حديث عما يجب أن يكون ، وشعره تأسيسي لبطولة يجب أن تستمر ، ففي ظلها تكون الشهادة أو النصر ، الذي سيفصح عن جيل قيادي ذي سمات إسلامية ، يقول في قصيدة (البطل)[1] :

رأى أرض أجداده الغالية ... تحكّم فيها العدو وسادا
فأعلنها ثورة حامية ... تقوض ما قد بناه وشادا
وهب كعاصفة عاتية ... يبيد الشرور ويمحو الفسادا
ولم يخش جلجلة المدفع ... فإيمانه كان أقوى عتادا
يريد لأمته أن تسودا ... وتمحو الشقاء وتنضو السوادا

فالبطل هنا مزود بالوعي الحضاري ، الذي يجعله يؤسس لبطولته بالتواصل مع زمن الأجداد ، ذلك لأن الهدف عنده لا يكمن في طرد فرنسا فحسب ، بل في حضارة

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ٩٥ .

يجب أن تتواصل ولن يكون ذلك إلاَّ بسمات : أولها «الإيمان بالله» فبدونه لا يكون النصر ، والشاعر إذ يركز على الإيمان ، فإنما يعلم أنه السلاح الفاصل المؤكّدة نتائجه ، كما يريد أن ينبه إلى خطورة ما قد يصيب الجزائريين من وهن وضعف نتيجة لضعف الجانب المادي فيهم ، ولذلك نجده وهو يؤكد في قصيدته (ذكرى بدء نزول القرآن) أن بطولة الشعب لا تنجز إلاَّ بالاعتصام بالله المؤيد بمجاهدي بدر قدوة ونموذجا[1] :

واعتصم بالله يعصمك ولا ... تخش مخلوقاً ولا ترج سواه
لا تقل نحن قليلون فما ... تضعف القلة من جند الإله
لا تقل ليست لنا أسلحة ... وعتاد مثلما عند الطغاة
عدة الإيمان أقوى عدة ... كم أبادت من معدات العتاة
لك في (بدر) دليل قاطع ... إذ جنى العزل من النصر جناه
فانصر الله تجده ناصراً ... وابذل الخير وجانب ما عداه

ومع الإيمان تأتي حقيقة أخرى أكد عليها الشاعر وهي أن بطولة الشعب الجزائري من بطولات محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الأخيار وجهاده من جهادهم ، وهذا ما فقهه المجاهدون فعملوا لأجله[2] :

يالـه من ثائر لم يغلب
هب للحرب بإيمان نبي
غاضبا لم يرض منكم الأجنبي
يالـه من ثائر لم يغلب
اسأل التاريخ عن أمجاده
من تجده خير من أمجاده

بأبطال أحمد سحنون ، بإذن الله ، تطوى بالسمات السابقة ، التي تجعلهم يتكلون ببطولتهم المقدمات الضرورية لثورة الجزائر بعد الاستقلال[3] :

---

(1) ديوان أحمد سحنون ، ص ...
(2) الديوان ، أحمد سحنون ، ص ...
(3) ديوان أحمد سحنون ، ص ...

امـض كالإعصار جبـار الخطـى ... فـي تفـان وتحـد وصمـود
وانتصب كالطود في وجه العدى ... وتجـاهل هـول نـار وحديـد
ثمـرة الجهـد الـذي تبذلـه ... أن تـرى شـعبك خفـاق البنـود
وتـرى أغلالـه قـد حطمـت ... وتـرى أجنـاده أقـوى الجنـود
وتـرى آمالـه قـد حققـت ... وتـرى نجـم بنيـه فـي صعـود
واحمـد الله علـى الجهـد الـذي ... حرر الأوطـان واهتـف بالنشـيد

إن البطولة عند أحمد سحنون بهذه الكيفية لا تخرج عن مرجعية إسلامية أساسها الملمح الإيماني ، الذي صنع البطولة منذ الأيام الأولى للدولة الإسلامية ، ولذلك نجده وهو يحث ويرشد ، ويوجه إلى الكشف عن ملامح هذه البطولة التي تغدو الجوهر لكل عمل بطولي يجب أن ينجز ، وفي سبيل ذلك نقرأ لقاموس طويل ممتد أساسه عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي . . .[1] :

فجيش الجزائر أقوى الجيوش ... يـؤدب مـن خـان أو ألحـدا
سيبطل مـن سـن شـرع الهـوى ... ويصلـح فـي الكـون مـا أفسـدا
بـأقدام جيـش النبـي ائتسـى ... بإيمـان صحب الرسـول ارتـدى
بـإصرار عقبـة وابـن الوليـد ... وطـارق وابـن نصـير اقتـدى

إن هؤلاء الرجال هم الأساس للقدوة ، وهم النماذج التي يجب أن يحتذى بها ، فعلى هديهم يكون الاستقلال وتكون النجاة[2] :

يـا أخي يـا ابـن البـلاد يـا رفيقـي فـي
يـا سـليل ابـن نصير وحفيـد ابـن زيـاد
[illegible] الحق الذي تحمل للأجيال هاد
[illegible] المنفعه بالصدق إلى التحرير حاد
[illegible] شعباً بات مكلوم الفؤاد

---

(١) [illegible] ص ١٣٢ .
(٢) ديوان أحمد سحنون : ص٣١٧ .

والاقتداء بهؤلاء الأبطال يصير فخراً واعتزازاً لدى الشاعر أحمد سحنون ، الذي يحوله إلى مناجاة مفعمة بالإيمان يرفعها إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ؟ ـ عساها تكون شاهدة على بطولة شعب مسلم ، لم يجاهد إلاَّ لإعلاء كلمة الله ، وفوق هذا فالشاعر يمارس نوعاً من صوفية الجهاد التي يرجو بها شفاعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي الشفاعة التي تكون عوناً لهذا الشعب ، وسنداً له في محنته[1] :

يا رسول الله صرنا قوة ... لا تبالي أي جبار عنيد
عجز الشيطان عن إغوائنا ... مذ قهرنا كل شيطان مريد
إننا أمتك المثلى على رغـ ... ـم أيام على ابن الضاد سود
لم تزل فينا تعاليم الهدى ... لم تبد فينا مواريث الجدود
إننا ضقنا بأحكام الهوى ... فتطلعنا إلى الحكم الرشيد

(١) «ديوان أحمد سحنون» : ص ٢٠١ .

obeikandl.com